الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الاولى

نبيل بدران

شهدت الدولة العثمانية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر تحولا اقتصاديا كبيرا مهد الطريق للتحولات السياسية المهمة التي حصلت قبل الحرب العالمية الاولى مباشرة . حدثت هذه التحولات الاقتصادية نتيجة تطبيق التنظيمات الادارية والمالية الجديدة وتحت ضغط القوى الاوروبية المستقوية على « الرجل المريض » . وكان تفاعل هذه العوامل قويا في جنوب سوريا « فلسطين » لوضعها الجغرافي ـ الاقتصادي والديني ـ السياسي . اتجهت الاطماع اليها لوضعها الاستراتيجي وللغلاف الديني القادر على احتواء هذه الاطماع . وسيقتصر البحث الحالي على تحليل المجتمع الفلاحي وتطوره تحت ضغط العوامل السالفة الذكر . وسنسعى الى مناقشة عدة نقاط : لماذا كانت فلسطين قليلة السكان نسبيا ؟ لماذا كان قسم كبير من سهول وسواحل فلسطين غير مستغل زراعيا ؟ هل كانت كفاءة الفلاح الفلسطيني بدائية كما تصورها المزاعم الصهيونية ؟ هل نمت الزراعة اليهودية ـ الصهيونية باستقلال تام عن الزراعة العربية غير محتاجة لتقنية الفلاح معتمدة فقط على العلم الزراعي الحديث ؟ ولن يطرح الجواب على هذه الاسئلة مستقلا عن تطور العلاقات الاجتماعية في المجتمع الريفي الفلسطيني . بل سيكون الجواب دراسة مقتضبة ولكن شاملة لوضع وتطور العلاقات الاجتماعية في الريف الفلسطيني ووضع المجتمع الريفي عامة ، اذ نريد لهذه الدراسة المساهمة في تحليل الاسباب التاريخية لبعض جوانب مسلك الفرد العربي الفلسطيني .

جغرافية فلسطين : يقع القطر الفلسطيني على حافة الصحراء العربية ، فهو قسم من الشريط الزراعي السوري الضيق والخاضع لمناخ البحر الابيض المتوسط والممتد من غزة جنوبا حتى الاسكندرونه شمالا . وفي حال اضافة المناطق القاحلة العديمة او قليلة المياه الى الصحراء الاصلية نجد ان هذه تصل الى مشارف غزة والخليل وعمان واربد . بل وصلت الصحراء بمفهومها الحضاري وقبل الاستقرار السياسي الى مشارف نهر الاردن وتخطته في عدة اماكن . وتعتمد فلسطين في صمودها امام زحف الصحراء على السلسلة الجبلية الغربية لنهر الاردن والتي تحتوي اهم مدن فلسطين واقدمها صمودا . كما تعتمد وبشكل اقل على هضبات الجليل وقممه . ونتيجة لمناخ البحر الابيض المتوسط يشمل موسم الامطار اكثر من نصف مساحة فلسطين والذي يصل معدله في اعالي جبال نابلس والجليل نحو ٨٠٠ مم في السنة ، بينما يصل متوسط كمية المطر السنوية في جميع مناطق المطر حوالي ٥١٨ مم . تساهم الامطار الغزيرة مع المياه المتفجرة والجارية في ينابيع وانهر في ارواء سهول فلسطين الثلاثة ١) السهل الساحلي ويمتد من الناقورة شمالا حتى رفح جنوبا ، يضيق في اماكن ويتسع في اماكن اخرى ، يفصله الكرمل ورأس حيفا الى قسمين : القسم الجنوبي ويسمى الساحل الفلسطيني والقسم الشمالي ويسمى سهل عكا ، ٢) غور الاردن يبدأ في منخفض الحولة ليصل الى البحر الميت ، ٣) ويفصل سهل مرج بن عامر والسهول الصغيرة الاخرى مثل سهل البطوف جبال